Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 2, Issue 5 (2023) • P: 26 - 12
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

Image of The Jew in "Sleep of the Gazelles"

Mr. Farid Khalil Nassar
Faculty of Graduate Studies | An-Najah National University | Palestine

Received: 16/07/2023
Revised: 28/07/2023
Accepted: 18/09/2023
Published: 30/12/2023

* Corresponding author: freed_nassar@hotmail.com

Citation: Nassar, F. KH. (2023). Image of The Jew in "Sleep of the Gazelles". *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 2*(5), 12 – 26 . https://doi.org/10.26389/AJSRP.C160723

2023 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: Palestine has been, and continues to be, groaning under the weight of intense and bitter conflicts for more than a century. It has witnessed wars, confrontations, losses, and defeats, with the first victims being the Arab Palestinians who lost their land and home. The Palestinian people lie on the open grounds and sleep under the open sky, while most of their children have become displaced and scattered across Arab and non-Arab countries. Consequently, all of this was inevitably reflected in Palestinian literature, both in poetry and prose.

This research, through the approach of inductive reasoning, aims to depict the image of the Jew, one of the parties involved in the conflict, as portrayed in the novel "Sleep of the Gazelles" by the Palestinian writer Muhammad Ali Taha. It seeks to unveil the essential characteristics of the Jewish literary persona and their practices.

Our selection of this aspect, that is the image of the Jew in the novel "Sleep of the Gazelles", is due to the significance of this relatively new literary work and because this novel/biography covers a period of more than six decades, during which Palestine witnessed numerous significant events. The documentation of these events by the author reinforces the Identity of the Palestinian subject that struggled and continues to fight to remain on their land and in their homeland.

Keywords: Sleep of the Gazelles, image of the Jew, military governor, Nakba, Palestine.

صورة اليهوديّ في "نوم الغزلان" لمحمّد علي طه

أ. فريد خليل نصّار
كلية الآداب | جامعة النجاح الوطنية | فلسطين

المستخلص: لقد كانت أرض فلسطين، وما تزال، تئنّ تحت وطأة صراعات حادّة ومريرة، منذ مائة عام ونيّف، وشهدت ما شهدت من حروب ومواجهات، وخسارات وانهزامات، وكان ضحيّتها الأولى الإنسان العربي الفلسطيني، الذي فقد أرضه وبيته، يفترش الأرض ويلتحف السماء، وبات معظم أبناء هذا الشعب مشرّدًا مشتّتًا متشظّيًا في دول عربية وغير عربيّة، فكان لا بدّ أن ينعكس ذلك كلّه في الأدب الفلسطيني شعرًا ونثرًا.

يحاول هذا البحث، من خلال المنهج الاستقرائي التحليليّ، أن يرصد صورة اليهوديّ، وهو أحد طرفي الصراع، كما تجلّت في رواية "نوم الغزلان"، للأديب الفلسطيني محمّد علي طه، وأن يميط اللثام عن أهمّ سمات شخصيّة اليهوديّ وممارساته.

وقد وقع اختيارنا على هذه الجزئيّة؛ صورة اليهوديّ في رواية "نوم الغزلان"، لأهميّة هذا العمل الجديد نسبيًّا، ولتناوله مسيرة أكثر من ستّة عقود، شهدت فيها فلسطين أحداثًا كثيرة جدًّا، عمل الكاتب على توثيقها، خاصّة وأنّها تعزّز هوية الإنسان الفلسطيني الذي ناضل وكافح، وما زال، من أجل البقاء فوق تراب أرضه ووطنه.

الكلمات المفتاحيّة: نوم الغزلان، صورة اليهوديّ، الحاكم العسكري، النكبة، فلسطين.

1- المقدمة:

في سنّ الخامسة والسبعين، وعلى مساحة 342 صفحة، و38 فصلًا، يروي الكاتب محمّد علي طه أجزاء وفصولًا هامّة من سيرته الذاتيّة، متنقّلا بين أبرز محطّات حياته في البلاد والخارج، دون اعتماد السرد المتسلسل الذي يميّز السيرة الذاتيّة، ومن خلال توظيفه جلّ تقنيّات القصّ والسرد، وعلى رأسها السخرية، يضع طه قارئه باكيًا ضاحكًا أمام لوحات سياسية وأدبيّة ودينيّة واجتماعيّة، تحكي تاريخه وتاريخ الشعب الفلسطينيّ.

ففي "نوم الغزلان" (2017)، يعود الكاتب بذاكرته إلى بدايات سنّ الطفولة وأيّام النكبة، حين كان في السادسة أو السابعة من عمره، واضطرّ أن يصبح مع عائلته لاجئًا في لبنان، ثمّ عادت العائلة إلى أرض الوطن، ولكنّ القرية أصبحت مكانًا محظورًا يُمنع الدخول إليه، فوجدت العائلة ملجأً في بلدة سخنين، ومن ثمّ مستقرًّا في بلدة كابول. أمّا شهادة ميلاده، فقد ضاعت، بل نُهبت كغيرها من الوثائق والأوراق التي بقيت في البيت، كما ضاع تاريخ ميلاد الكثير من الفلسطينيّين، وأُخفيت كواشين بيوتهم وأراضيهم، ففي عام 1948، عام النّكبة، احتلّت القوّات اليهوديّة قرية ميعار الواقعة في الجليل الغربيّ، وطُرد أهلها منها، وخسر الكاتب يومها بيته وألعابه وكتابه الأوّل وأقلام التّلوين، كما خسر أصدقاءه وطفولته.

فالكاتب لا يروي قصّة طفل هُجّر من ميعار، وحطّ رحاله في كابول، بل يروي قصّة شعب بأكمله، عانى الاحتلال والاضطهاد والتشريد والتدمير والمصادرة والاقتلاع والتعذيب والقتل والملاحقة، ليس لذنب سوى أنّه يحبّ الحياة ما استطاع إليها سبيلا، فراح يناضل من أجل حريّته وحقّه في العيش الكريم على تراب آبائه وأجداده.

ولأنّ الكتابة هي نوع من أنواع المقاومة لدى محمّد علي طه، فقد حرص، في جميع أعماله وكتاباته، على تصوير واقع الإنسان العربيّ في هذه البلاد، منذ النكبة، ومرورًا بالنكسة وما تلاها من حروبات، وعمل على توثيق أهمّ المحطات السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة التي مرّت بها هذه البلاد في العقود الأخيرة، ووقف متأنّيًا عند الصراع الفلسطينيّ- الإسرائيليّ. وعليه، تحاول هذه الدراسة أن تستكشف ملامح صورة الآخر/ اليهوديّ- كما تجلّت في رواية "نوم الغزلان"، ومن ثمّ، تحاول أن تستوضح؛ هل حقًّا أنّ "اليهود أشرار، وقد لعنهم الله تعالى ورسوله، وأنّهم يذبحون الأطفال والنساء من العرب" كما جاء على لسان الحاجّة زبيدة جدّة محمود المحمّد صديق محمّد علي طه؟ وهل أسقط الكاتب على الآخر/ اليهودي في "نوم الغزلان"، تلك التصوّرات التي عُرفت عنه؟ فصوّره في حدود ما كان عليه وما عرف عنه في الأدبين العربيّ والعالميّ، وأعاد إنتاج الصورة؟ أم أنّ هذه الصورة قد تغيّرت واختلفت؟

2- تمهيد:

صورة اليهوديّ في الأدبين؛ الغربيّ والعربيّ:

إنّ نظرة طائرة إلى الآداب العالميّة؛ العربيّة منها والغربيّة، كافية أن تُظهر اليهوديّ بصورة قبيحة وكريهة؛ ويشير محمّد سيّد أحمد متولي، إلى أنّ الأدب الإنجليزي يحفل كثيرًا بمثل هذه الصورة؛ إذ ظهرت مسرحية "تاجر البندقية 1595" لشكسبير William Shakespeare، وقدّمت لليهودي صورة منفّرة، فاليهودي جشع، فظّ، محبّ للمال. وكذلك فعل الكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز Charles Dickens الذي قدّم لليهوديّ صورة لا تخلو من التحقير في روايته "أوليفر تويست"، وكذلك كريستوفر مارلو Christopher Marlowe في مسرحيّته "اليهودي المالطي"، حيث تتجلّى صفات اليهودي في البخل والحرص على المال، وشهوة زيادته بشتى السبل، وحرمان الآخرين منه، وحياكة الدسائس والمؤامرات في قتل الأبرياء بلا وازع أو ضمير، وكذلك ظهر اليهوديّ مثالًا للشرّ في أشعار ت. س. إليوت T. S. Eliot. وكذلك الأمر كان في الأدب الروسي؛ إذ صوّر اليهوديّ شخصيّة شريرة، يغلب عليها حبّ السيطرة، والجشع، والتعالي، والعيش على الربا، والتجارة، والاعتماد على الأساطير (ينظر في: متولي، 2019، ص66).

أما الدارسون العرب، أمثال توفيق الحكيم، والطيب صالح، وسهيل إدريس، فقد كتبوا عن صورة اليهود وعن صورة الأوروبيّ في الأدب العربيّ، ومنذ بداية المشكلة الفلسطينيّة مع وعد بلفور، بدأت تبرز هذه الكتابات بشكل لافت، ثمّ أخذت تتوالى لتبرز في الأدب الفلسطينيّ أكثر منها في الأدب العربيّ، وإن كان هناك كتّاب قد أبرزوا شخصيات يهوديّة وكتبوا عن يهود عرب، ومن أبرزهم إحسان عبد القدوس، إلّا أنّ كتّابًا آخرين أمثال نجيب محفوظ لم يبرزوا في أعمالهم شخصيات يهوديّة، بل إنّ أعمالهم قلّما حفلت بشخصيات فلسطينيّة.

ويشير محمّد سيّد متولّي، إلى أنّ قصيدة أحمد فارس الشدياق، "لمّ القرود في ذمّ اليهود"، والتي نظمها عام 1932، ولم تنشر، وإنّما حُفظت في مكتبة جامعة "كمبردج"، كانت ربّما أوّل عمل أدبيّ في العصر الحديث قدّم صورة لليهود بشكل واضح، وقد امتازت بألفاظها الجنسيّة الفاحشة التي تخدش الحياء، ممّا حال دون نشرها كاملة. ثمّ كانت رواية "الوارث" لخليل بيدس 1920، وفيها يقدّم شخصيّات يهوديّة تحمل الكثير من الصفات السلبيّة، خاصة شخصيّة الغانية "إستير" اللعوب، التي تلجأ إلى الحيلة والمكر والمتاجرة بجسدها من أجل الحصول على المال، وكذلك ظهرت صورة الفتاة اللعوب في كتابات محمد عزة دروزة "الملاك والمسمار" 1935، وبرهان

الدين العبوشي "وطن الشهيد" 1947، وكذلك ظهرت صورة اليهودي الجشع المحبّ للمال في "مذكرات دجاجة" 1943، لإسحاق موسى الحسيني"، ورواية "في السرير" 1946، لمحمد العدناني (ينظر في: متولي، 2019، ص67).

ولم تختلف صورة اليهوديّ في هذه الروايات، عمّا قدّمته الروايات والأعمال الأدبيّة بعد النكبة عام 1948؛ فاليهوديّ عدوّ ماكر حاقد مجرم، يتكوّن من عصابات لا تعرف الرحمة، ومن أبرز هذه النصوص "حفنة رمال" 1962، و "حبّات البرتقال" 1964، لناصر الدين النشاشيبي، حيث تبدو الصورة البشعة لليهوديّ الصهيوني الذي يريد أن يقيم وطنًا قوميًّا على حساب الشعب الفلسطينيّ (ينظر في: متولي، 2019، ص68).

وبعد نكسة حزيران عام 1967، ظهرت رواية "حارة اليهود.. دم لفطير صهيون" 1971، للكاتب المصري نجيب الكيلاني، والتي تصوّر دمويّة اليهود المبنيّة على عقائد دينيّة خاطئة توارثوها (ينظر في: متولي، 2019، ص66).

ويشير عادل الأسطة إلى أنّه قد صدرت في العقد الأخير من القرن الـ 20 أعمال روائيّة أظهرت شخصيّات يهوديّة، ومن أبرزها لمؤلّفين أمثال إلياس خوري، وعبد الرحمن منيف، وممدوح عدوان، وأمين معلوف، وغيرهم. ويبدو أنّ كثيرًا من النصوص قد أنجزت بعد قراءة مؤلّفيها روايات صهيونيّة، ورمى الكتّاب العرب والفلسطينيّون من وراء كتاباتهم إلى دحض الفكر الصهيونيّ، وعلى رأسهم محمود درويش، ومعين بسيسو وإبراهيم طوقان، وغيرهم. ويمكن القول إنّ معظم الكتّاب الذين أنجزوا نصوصًا تناولت اليهود هم كتابٌ ذوو توجّه يساريّ ماركسيّ، مع وجود من يختلف معهم (ينظر في: الأسطة، 2012، ص7-8).

والواقع أنّ تواتر هذه الصورة عن اليهود في تاريخ العرب والآداب العالميّة، لم يأت تعسّفًا، ولم يكن محض افتراء، بل إنّ هناك شواهد كثيرة تدعم هذا التواتر والانتشار، وهناك من اليهود أنفسهم من يؤمنون بهذه الصورة، فها هي "رفقة" التي تصاب بصدمة عاطفيّة بعد أن عرفت أنّ "أفشالوم" الشاعر يحبّ أختها "سارة" في رواية "أعدائي" لممدوح عدوان، وتقرر الهجرة إلى أمريكا، وحين يستاء منها "ألتر ليفي"، لأنها لا تضحّي بذاتها من أجل اليهود، تخاطبه قائلة: "ما الذي سأتركه؟ الخوف الذي نتصبّح به وننام عليه؟ مكاننا؟ نحن اليهود. أولاد الميتة.. البخلاء.. الدنيئون. حتى نحن النساء لا يروننا إلا شراميط، ألا تعرف أنّهم يرون اليهوديّة شرموطة؟ ولا تكاد الجلسة التي نطقت فيها بهذا الكلام تنتهي، حتى تمنح جسدها لـ "ألتر ليفي". وحين يصحوان تسأله رفقة: "هل نحن شراميط"؟ (ينظر في: الأسطة، 2012، ص45-46).

إذن، فإنّ الصورة التي قدّمها الأدب العربيّ والغربيّ لليهوديّ كانت سلبية للغاية؛ فهو بخيل، وقذر، وحاقد، ومنافق، ودمويّ، وغدّار، عبد للمال، لا قيم له ولا مبادئ ولا أخلاق، انتهازيّ، يسعى من أجل تحقيق مصالحه وإشباع رغبته وطمعه وجشعه، وما زاد هذه الصورة بشاعة الاحتلال الإسرائيلي، والصراع الفلسطيني الصهيوني، إذ أنّ هذه الصورة في مراحلها المبكّرة "لم تصدر عن فهم سياسيّ لطبيعة الأخطار المحدقة بالوطن، أو من خلال فهم أيديولوجي لطبيعة الحركة الصهيونيّة وأهدافها" (متولي، 2019، ص68)، وهي الصورة التي ظهرت بعد 1948، وقيام إسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطيني، فظهر اليهوديّ المجرم الذي لا يعرف الرحمة، وظهر اليهود على شكل عصابات إجراميّة، واستمرّت هذه الصورة بعد النكسة عام 1967.

أمّا وقد اختلفت الظروف، وعصفت بالمنطقة رياح التغيير، فإنّ هناك من يلحظ تغيّرًا بهذه الصورة في الآونة الأخيرة، وتحديدًا مع بداية القرن الحادي والعشرين؛ إذ أصبحت الروايات تحمل دلالات إيجابيّة عن اليهود، وتطرح رؤية مغايرة، تختلف عن الصورة النمطيّة التقليديّة، وربّما كان سبب ذلك التحوّل "ميل الكاتب العربي إلى المهادنة والسلام، وتغليب النظرة الإنسانيّة الشاملة على النظرة الدينيّة أو الأيديولوجيّة، والرغبة في التقارب والاندماج بدلًا من العنف والصراع"(متولي، 2019، ص72)، إضافة إلى محاولة الكتّاب والروائيين والشعراء والأدباء العرب الدفاع عن صورة العربيّ، بعدما حاول أعداء الأمة تشويهها بعد الأحداث التي ألصقها العالم "المتحضّر" بالعرب، وعلى رأسها أحداث 11سبتمبر 2001، وبعد دعوة بعض الجهات إلى التطبيع الثقافيّ والرضا بالأمر الواقع، إضافة إلى اتفاقيّات السلام التي وقّعتها بعض الأطراف العربيّة مع إسرائيل، وما حدث من فتور لروح المقاومة عند العربيّ، وغيرها من الظروف والعوامل والأسباب.

3- صورة اليهوديّ في "نوم الغزلان":

1-3 اليهوديّ والحكم العسكريّ:

إنّ المقصود بالحكم العسكريّ هو النظام المفروض على أبناء الأقليّة العربيّة الفلسطينية الذين بقوا في الوطن بعد نكبة 1948، والتي كان من نتائجها تهجير ما يقارب 750000 فلسطينيّ من القرى والمدن العربيّة، وتحويلهم إلى لاجئين، إنْ في وطنهم أو خارج الوطن، علمًا بأنّ عدد المواطنين العرب الذين بقوا في حدود دولة إسرائيل بعد اتفاقيّات الهدنة عام 1949، وصل إلى 156000 نسمة، توزّعوا في المثلّث والجليل والنقب والمدن المختلطة.

وكان نظام "الحكم العسكري" هو المنظومة القانونيّة العسكريّة السياسيّة التي مكّنت المؤسسات الصهيونيّة من السير قدمًا في عمليّة بناء الدولة، بحسب أنماط وآليّات عمل خطّة "البيت القومي" في فترة الانتداب البريطانيّ؛ أيّ دون استيعاب جديد للعرب، ومع تجاهل شبه تامّ لوجودهم من حيث مشاريع العمل والاستثمار والتطوير وبناء أجهزة الدولة ومؤسّساتها.

ومن أهداف فرض هذه المنظومة كان مراقبة لصيقة على سلوك أبناء المجتمع العربيّ، وقد عُرّفت على أنّها "مراقبة أمنيّة"، من خلال مظاهر عديدة تركّزت في منع حريّة الحركة "كان السفر على حيفا يحتاج إلى تصريح من الحاكم العسكريّ وكانت المواصلات صعبة"(طه، 2017، ص100)، ومنع حريّة العمل، وحريّة التنظيم، والنشاط السياسي بين المواطنين العرب. ومن أهدافها أيضًا، تقليص أو إلغاء لمعاني المساواة العمليّة للمواطنة التي مُنحت للعرب، بغرض إقصائهم عن معظم أجهزة الدولة، وممارسة التمييز ضدّهم على مختلف المستويات الحياتية العامة "ألم تعمل السلطات منذ العام 1948 على زرع اليأس في قوبنا ونفوسنا حتى نرحل عن وطننا"؟ (طه، 2017، ص266).

علاوة على ذلك، فقد هدفت هذه المنظومة إلى تعميق التشرذم في صفوف المواطنين العرب، وخلق هويّات جديدة من خلال اللعب على وتر الطائفيّة، بغرض الحيلولة دون تبلور هويّة واحدة قوميّة واحدة موحّدة. إضافة إلى أنّ هذه المنظومة كانت تهدف إلى منع أيّ شكل من أشكال التواصل بين هؤلاء المواطنين، وبين أشقائهم الفلسطينيّين في أماكن تواجدهم "كانت القرية تعاني جور الحكم العسكري، الذي صنّف سكّانها إلى ثلاثة أصناف، الصنف الأول يحمل الهويّات الزرقاء، وينعم بالطمأنينة وحقّ البقاء في الوطن، أمّا الثاني فيحمل الهويات الحمراء التي تعني أنه مواطن مؤقت، يحقّ للحاكم العسكري نفيه أو طرده من البلاد، وأمّا الصنف الثالث فلا يحمل أيّة بطاقة، لا زرقاء ولا حمراء ولا سوداء، وكان العسكر يطاردون رجال الصنف الثالث فيهربون ويختبئون في المغاور والجبال، فإذا ألقى العساكر القبض على أحدهم حملوه في السيارة العسكرية وألقوا به طريدا قرب مدينة جنين، وكان الناس يسمون عملية الطرد خارج الوطن "الكبّ"، وعندما يسأل أحدهم عن فلان يقولون: "كبّوه إلى جنين!" (طه، 2017، ص54).

إضافة إلى ذلك، فقد هدف الحكم العسكريّ إلى تجسيد جبروت الحكم الجديد ومظاهر قوّته أمام السكّان العرب الباقين المرتبكين، المعزولين، المنقسمين، المذعورين، فلم يتورّع الحاكم العسكريّ من استخدام أساليب وطرق الترهيب كافّة "استدعاني الحاكم العسكري كما استدعاني المفتش إلى مكتبه في الناصرة، وعبّر عن غضبه من نشر قصصي في مجلة "الجديد" باسمي الصريح، كما احتجّ على موضوع قصة نشرتها في مجلة "الشرق"، قال لي: كنت تكتب باسم مستعار وكنا نعرف ذلك، فلماذا صرت تنشر قصصك بالاسم الصريح؟ هذا تجاوز للخط الأحمر، أنصحك نصيحة لوجه الله تعالى: "الباب الذي تأتي منه الريح سكره وأستريح"(طه، 2017، ص89).

فكان الحاكم العسكري يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة؛ إذ شكّل عنوانًا رئيسيًا وشبه وحيد لفروع الدولة كافّة، الأمر الذي جعل كلّ مواطن عربيّ يشعر بالتبعيّة اليوميّة للحاكم العسكريّ ومنظومته في المنطقة التي كان يعيش فيها "وكان الحاكم العسكري يأتي في مطلع كل شهر إلى المدرسة الابتدائيّة يحمل حقيبة فيها رواتب المعلمين"(طه، 2017، ص89). ليس ذلك فحسب، بل إنه كان يتدخّل في أمور الزواج والطلاق وقضايا الأسر "ففي إحدى القرى أفشل خطبة لأنه كان غاضبا على العريس، فضغط على والد العروسة فانصاع له"(طه، 2017، ص89).

وأمام مثل هذه المنظومة المركّبة والمعقّدة والمخيفة المتمثّلة بالحاكم العسكريّ وزمرته، والتي كانت تزرع الخوف والرعب في قلوب الناس، لم يجد وجهاء قريته طريقًا إلّا مسايرته واتقاء شرّه، وبلهجة لا تخلو من المرارة والأسى، يقول الكاتب: "وكان وجهاء قريتي في تلك السنوات يتنافسون في إرضاء الحاكم العسكريّ واحترامه واستضافته في بيوتهم، حيث يذبحون له الخرفان والجداء والفراخ، وكانوا يتخاصمون بينهم في دعوته لزيارتهم، وفي استقباله في بيوتهم، لأنّ الحلّ والربط بيده، وهو الذي يمنح الهوية الاسرائيليّة لمن يشاء، ويحرم منها من يشاء، ويطرد من الوطن أيّ عربيّ يشاء، ويمنح تصاريح السفر إلى المدن، كما أنّه المسؤول عن أملاك الغائبين وعن الوقف الإسلاميّ وعن المدارس والمساجد، وهو الذي يقرّر في تعيين المدرسين وأئمة المساجد"(طه، 2017، ص89).

فمنظومة الحكم العسكريّ، المتمثّلة بالمخاتير والشيوخ وزعماء العائلات والحمائل والطوائف كانت تهدف بشكل علنيّ أو خفيّ إلى تمكين السيطرة على جمهور كامل وإخضاعه لمنظومة تتحكّم بسلوكه اليوميّ ووعيه وحدود مداركه، وبالتالي؛ هل أدّى المخاتير والزعماء آنذاك دورًا إيجابيًّا أم عكس ذلك؟ هل يمكن أن نلومهم على تعاملهم مع الحاكم العسكريّ ودولة اليهود؟ "ترى لماذا تصرف هؤلاء المخاتير والوجهاء تصرّفًا مغايرًا وتعاونوا مع اليهود؟ هل كانت عندهم رؤية مغايرة؟ أم أنهم كانوا يرغبون في المحافظة على زعامتهم ومكانتهم العائليّة؟ أم أنّ دوافع أخرى سريّة حرّكتهم، وأمّا السؤال الكبير فهو: لو تصرّف الوجهاء والمخاتير جميعهم في القرى والبلدات والمدن الأخرى التصرف نفسه، هل كان اليهود سيطردون السكان ويهدمون المدن والقرى؟"(طه، 2017، ص49).

والواقع أنّ الكاتب لم يجد جوابًا كافيًا شافيًا لمثل هذه التساؤلات؛ فبقي حائرًا حين سأله ياسر عبد ربّه، وزير الثقافة الفلسطيني آنذاك، ذات مرة: "كيف بقيتم في قراكم؟ لماذا لم تُهجّر هذه القرى؟"(طه، 2017، ص49). فيقول: "وجدت صعوبة في الإجابة، هل السبب يعود إلى هؤلاء المخاتير الذين تعاونوا مع اليهود حينئذ؟ هل السبب يعود إلى "عصبة التحرر الوطنيّ" التي دعت

الناس إلى البقاء في بيوتهم وقراهم، أم أنّ السبب الأساس يعود إلى سقوط الجليل بسرعة هائلة لم تمكّن الجيش الإسرائيلي من عمليّة "تنظيف" كاملة للقرى والمدن العربية؟"(طه، 2017، ص49).

وتجدر الإشارة إلى أنّ رئيس الوزراء الأسبق، دافيد بن غوريون، كان صرّح بأنّه يجب الحكم على العرب ليس من منطلق ما يفعلون، بل، من منطلق ما يفكّرون بفعله، وهناك من ذهب إلى أنّ مثل هذا التصريح يعبّر بشكل واضح عن عدم قبوله وجود الأقليّة العربيّة إلى جانب الأغلبيّة اليهوديّة، وإنهاء تلك الشراكة القسريّة معهم بشتّى الوسائل والسبل، وهناك من فسّر أقواله على أنّها جزء من حملة تعنيف شنّها بن غوريون على بعض التيارات التي حاولت أن تبني جسورًا من الثقة بين الأغلبيّة والأقليّة في المؤسسات التي بنتها الأغلبيّة، أو على الأقل اندماجها في الحياة العامة للدولة.

وفي كلتا الحالتين، فإن النتيجة توصل إلى حقيقة واحدة، مفادها أنّ دافيد بن غوريون كان يبحث عن معادلة تستطيع الدولة اليهوديّة بواسطتها التخلّص من الأقليّة القوميّة الأصلانيّة ذات الجذور الراسخة في تاريخ هذه البلاد (ينظر في: كيها، 2014، ص9 وما بعدها). وربّما في هذا بعض إجابة لتساؤل الكاتب: "لو تصرّف الوجهاء والمخاتير جميعهم في القرى والبلدات والمدن الأخرى التصرف نفسه، هل كان اليهود سيطردون السكان ويهدمون المدن والقرى؟ هل بقينا عن طريق "خطأ" ارتكبه بعض القادة اليهود، أم بقينا لأننا تمسّكنا أكثر من غيرنا بأرض الوطن؟ فالدراسات التاريخيّة والوثائق العديدة تؤكّد أنّ الحركة الصهيونيّة أرادت أرضًا نظيفة من السكان العرب"(طه، 2017، ص49). وفي موضع آخر يقول: "ملفّاتهم السوداء، العسكريّة والحزبيّة والحكوميّة تقول إنّ بقاءنا في وطننا كان غلطة.. كان خطأ.. ومنذ اثنين وخمسين عامًا ونحن نخوض معركة البقاء في وطننا الحبيب، ومنذ اثنين وخمسين عاماً وهم يبحثون عن حلّ لتصحيح خطئهم الذي ارتكبوه"(طه، 2017، ص212).

ورغم إلغاء الحكم العسكريّ عام 1966 بعد صراع طويل ومستمرّ، والتوقّف عن تطبيق أنظمته بعد ذلك بعامين (1968)، إلّا أنّ ذلك لم يُحدث تغييرًا جوهريًّا من حيث علاقة المؤسسة الرسميّة بالمواطنين العرب، وعندي، إنّ هذه المركّبات والأهداف ما زالت حاضرة وبقوّة على المستويات كافّة، وبقيت متنفّذة باعتبار العرب جمهورًا معاديًا ومشكلة أمنيّة، ويجب مراقبته بشكل دائم، والسيطرة على مقدّرات حياته، ومنعه من التنظيم المستقلّ، وما زالت هناك أصوات كثيرة تطالب بدحر المواطنين العرب من الخارطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسيّة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر "رفع نسبة الحسم من 2% إلى 3.25% بناء على تنسيق بين نتنياهو وحزب الليكود وبين وزير خارجيّته، النائب اليميني المتطرف أفيغدور ليبرمان، كي يُخرجا الأحزاب الفاعلة في الساحة العربيّة من التمثيل البرلمانيّ، فقد خططا لترانسفير سياسيّ للعرب من البرلمان مقدمة لترانسفير وجوديّ ينادي به أفيغدور ليبرمان علانية"(طه، 2017، ص263-264)، هذا بالإضافة إلى كلّ أشكال التمييز العنصريّ والطائفيّ الذي تنتهجه الحكومات المتعاقبة، وسياسة الاقتلاع والمصادرة والتهجير وما إلى ذلك من مظاهر سنأتي على ذكرها في الصفحات القادمة من هذه الدراسة.

2-3 اليهوديّ وجهاز المخابرات:

تنقل كثير من الكتب والمجلات والدوريّات بقصص كثيرة ومثيرة حول موضوع التجسس والجواسيس اليهود الذين كان لهم دور كبير قبل قيام الدولة، وبعدها، والتي تمّ الكشف عنهم فيما بعد، أو تمّ القبض عليهم وإعدامهم في الدول العربيّة، وقد وضع الصحفي والكاتب في "نيويورك تايمز"، ماتي فريدمان الذي كان مراسلًا ومحررًا لوكالة "أسوشيتد برس" في القدس، كتابًا بعنوان "جواسيس بلا وطن: حياة سرية عند ولادة إسرائيل"، يحكي فيه حكاية جذور أول جواسيس إسرائيل، وهم شباب يهود ذوو أصول من الدول العربيّة، كان بإمكانهم أن يمرّوا عبر الحدود دون أن يتّم كشفهم، وكانوا جزءًا من "القسم العربي" من "البلماح"، وهي القوّة الإسرائيليّة التي تكوّنت قبل قيام الدولة وتحوّلت إلى الجيش الإسرائيليّ لاحقًا. ويؤرّخ "جواسيس بلا وطن" تجارب العملاء السريّين في مختلف المجتمعات العربية في الفترة التي سبقت النكبة عام 1948، وبعد قيام إسرائيل؛ إذ ينتقل الكتاب إلى بيروت، لبنان، حيث عاش هؤلاء الرجال اليهود هناك على أنّهم لاجئون فلسطينيون (ينظر في:- https://ar.timesofisrael.com).

وكثيرًا ما ظهرت شخصيّة اليهودي في الأدب العربي بصورة الجاسوس الذي يعمل لصالح المؤسّسة، قبل قيام الدولة وبعدها، إن من الرجال أو النساء، وبالمقابل، فكان هناك عدد غير قليل من العملاء المأجورين غير اليهود الذين كانوا على صلة بالجهات الأمنية والأجهزة المختلفة، وعملوا على نقل الأخبار المتعلقة بتحرّكات المواطنين العرب، على المستويات كافة، ويذكر الكاتب أنّ والده قد عرف "أنّ مجموعة من العملاء المتغطرسة الظالمة التي تسكن في القرية المجاورة قد وشت به إلى الحاكم العسكري وأنّ حقلنا سيكون تحت سيطرتها منذ اليوم"(طه، 2017، ص54)، وكان يرأس هذه المجموعة "رجل قصير لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، كانت تربطه علاقة متينة مع اليهود و"الهاجاناة" منذ سنوات الانتداب البريطانيّ.. وبعد سقوط الجليل أحاط نفسه بمجموعة من الرجال المرتزقة، ومنح للحاكم العسكري سلطة وقوة وسيطرة على أراضي وأملاك لثلاث قرى، هي: الدامون وميعار وشعب"(طه، 2017، ص 54 وما بعدها).

أمّا جهاز التعليم فلم يسلم من ذلك، وكان المعلّمون يتّخذون مختلف التدابير حرصًا على بقائهم في سلك التعليم؛ فقد "كان مدرّس اللغة العربية رجلا وطنيا يغمر بالخروج عن المادة الدراسية المقررة من وزارة المعارف، ويقرأ لنا نصا أدبيا من كتاب أو مجلة يحرص أن يلفّه أو يلفّها بغلاف للتمويه مخافة أن يشي به أحد الطلاب إلى الحاكم العسكري"(طه، 2017، ص88).

3-3 اليهوديّ والمجازر:

يحفل تاريخ اليهود بالمذابح والمجازر ضدّ أبناء الشعب الفلسطينيّ، قبل قيام دولة إسرائيل وبعدها؛ إذ يقدّر عدد المجازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونية قبل قيام الدولة، في الفترة 1937-1948 بأكثر من 75 مجزرة، ذهب ضحيّتها أكثر من خمسة آلاف شهيد فلسطينيّ وآلاف الجرحى (ينظر في: علي، 2009، ص25)، وارتبطت أجهزة الأمن الإسرائيلية المختلفة بعشرات أو مئات الاغتيالات لرجالات السياسة والأدب والثقافة والعلم، "اغتالوا كمال ناصر الشاعر الرقيق واغتالوا غسان كنفاني القاص والروائي والباحث الكبير، واغتالوا ماجد أبو شرار الكاتب المثقف الثوري واغتالوا واغتالوا"(طه، 2017، ص224).

ويذكر ياسر علي، في كتابه "المجازر الإسرائيليّة بحقّ الشعب الفلسطيني" أنّ المجازر التي ارتكبتها إسرائيل بحقّ الشعب الفلسطينيّ قد وصلت إلى ذروتها في الفترة الواقعة بين 1947-1948، وما جرى كان أشبه بتطهير عرقيّ أو إبادة جماعيّة؛ إذ دُمّرت 531 قرية فلسطينيّة، بينها 270 قرية هجرها سكّانها بسبب هجوم عسكريّ مباشر، و122 قرية طرد سكّانها على يد قوّات الاحتلال، وكان من أبرزها مجزرة الطنطورة، ومجزرة دير ياسين(ينظر في: علي، 2009، ص25)، و"لكنّ الاسم الذي كان يثير الحزن والأسى والدموع هو "دير ياسين"، عندما كان حسين يقرأ عن المجزرة وعن النساء والأطفال والشيوخ والحوامل الذين قتلهم اليهود، كانت الدموع تسيل من عيون الرجال، وكان الغضب والألم يكسو سحناتهم"(طه، 2017، ص23).

وفي الفترة الواقعة بين 1949-1967، ارتكبت 19 مجزرة، وكانت جميعها في الضفة الغربيّة وقطاع غزة، راح ضحيّتها أكثر من 1500 فلسطيني، وكان آخرها المجازر التي ارتكبت في القدس ورفح، وقد ارتكبت بين سنتي 1967-2000 عدد من المجازر، كان من أبرزها مجزرة صبرا وشاتيلا، عام 1982، ثم مجزرة الأقصى عام 1990، والحرم الإبراهيمي 1994، وغيرها (ينظر في: علي، 2009، ص25 وما بعدها).

ومن نافل القول إنّ الهدف من وراء هذه المجازر كان منذ البدايات كسر إرادة الشعب الفلسطيني، وإرهابه وتخويفه، وتنفيذ عمليّة تطهير عرقي تؤدي إلى طرد الفلسطينيين من أرضهم، وإجبارهم على الاستسلام والقبول بالتسويات المجحفة بعدها.

وينبغي الإشارة هنا، إلى أنّ قتل الفلسطينيين لا يُعدّ "جريمة" عند الإسرائيليين، "لكنّه جزء ضروري من ثقافة مجتمع قائم على مبدأ الاحتلال، فقبول إمكانية المجزرة وارد لدى اليمين واليسار الصهيوني على حدّ سواء، بل إنّ من أبرز الظواهر التي يتّسم بها المجتمع الإسرائيليّ أنّه مجتمع حربي وذو ثقافة حربيّة"(علي، 2009، ص21)، بل إن السياسيين الإسرائيليين يحرصون كلّ الحرص على تثبيت وإبقاء مفاهيم سائدة في الإعلام الإسرائيلي والرأي العام العالمي، نحو "حرب الاستقلال"، و"طهارة السلاح الإسرائيلي"، "ذبحتنا العصابات الصهيونية في الأسواق العامة وفي المشاغل والمصانع وفي المساجد وفي البيوت وفي ساحات القرى والمدن.. ذبحونا في دير ياسين والطنطورة والدوايمة وعيلبون واللد والرملة وطبريا وكفر قاسم و.. ذبحونا في مسجد دهمش.. ويتحدثون عن الإرهاب الفلسطيني؟"(طه، 2017، ص15).

فقد دأبت الحكومات الإسرائيليّة، مدجّجة بالإعلام على أن تروي رواياتها الكاذبة المزوّرة، وتبدي للعالم أنّ شعبها هو الضحيّة، وأنّه هو المعتدى عليه، و"لكن ثبت فيما بعد أنها أسطورة لا تقارب الواقع بأي حال، وكان لزامًا على الدوائر الفكريّة الصهيونيّة الاعتراف بكذب هذه المقولة عند الكشف عن أرشيف النكبة، والتقارير الرسمية لحروب العصابات الصهيونيّة التي شكّلت لاحقًا نواة الجيش الإسرائيليّ"(علي، 2009، ص23).

والحقيقة كما يراها محمد علي طه، بأنّهم يقتلوننا "لأنهم يخافون منا.. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب الأرض وصاحب الزيتون والصبار. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب حوض النعناع، يقتلوننا لأنهم أكلوا اللحم النيء، ويخافون من وجع البطن.. إنهم يخافون.. يخافون.. يخافون.. يخافون الفجر البازغ.. الآتي.. الآتي.. الأمل"(طه، 2017، ص216)، فقد لجأوا إلى التطهير العرقي و"التنظيف" كما أسماه دافيد بن غوريون، لأنّهم أدركوا أن بقاء الشعب الفلسطيني في أرضه وعلى تراب وطنه كان خطأ فادحًا، ومن ثمّ، يجب تصحيحه بالقتل والذبح وارتكاب المجازر "وكانت هذه هي الخطّة التي حسمت مصير الفلسطينيين القاطنين داخل الأراضي التي أراد القادة الصهيونيّون الاستيلاء عليها لإقامة الدولة اليهوديّة العتيدة، وبغضّ النظر عمّا إذا كان من الممكن أن يتّخذ هؤلاء الفلسطينيون قرارًا بالتعامل مع الدولة اليهوديّة أو مقاومتها، فإنّ الخطة قضت بطردهم من وطنهم بشكل منهجيّ وكليّ" (بابه، 2007، ص38).

4-3 اليهوديّ والثقافة:

ليس وحده محمّد علي طه من رأى بالجهل سببًا رئيسًا من أسباب النكبة عام (طه، 2017، ص106)، بل إنّ المؤسّسة الإسرئيليّة بأجهزتها المختلفة، عملت، وما تزال، منذ قيام الدولة، على إعادة إنتاج هذا الجهل وتكريسه؛ إذ ترى بالعلم والتعليم والثقافة خطرًا يهدّد مخطّطاتها على المستويات كافّة، وبالتالي، لا تدّخر جهدًا في سبيل تدمير الثقافة وإخفاء معالمها، وفي صياغة عمليّة التعليم وفق منظورها ومخطّطاتها وأهدافها، المعلنة منها والمضمرة، فقد نهبوا جميع الكتب في المكتبات العامّة والخاصّة، "كانت البلاد قاحلة من الكتب بعد النكبة؛ فقد نهبت القوات الإسرائيليّة المكتبات العامة والخاصّة"(طه، 2017، ص75، 93). فخوفهم من الكتب واللغة العربيّة هو ما دفعهم إلى نهبها وسرقتها، بعد سرقة الأرض والبيوت "ويشير حسين إلى بيت جميل، إلى قصر شاهق، ويقول لي: هذا البيت الجميل هو بيت حنا بشارات، رجل برجوازيّ، هل تعرف من احتله وسكن فيه؟ غولدا مئير، يسرقون البيوت ويسرقون الكتب وينهبون التاريخ"(طه، 2017، ص124).

فقد كانوا يخافون الكتب، ويخافون الحروف العربيّة "لم تبق في البلاد بعد النكبة مطبعة بالحروف العربيّة سوى مطبعة "الاتحاد الصغيرة" في وادي النسناس في حيفا، فقرّر الحاكم العسكريّ مصادرتها، فلمّا علم عمال المطبعة بذلك خبّأوا الحروف في أكياس الطحين ليحافظوا على بقاء الحرف العربيّ في الوطن"(طه، 2017، ص93)، وبلهجة ساخرة ومتهكّمة يصف محمّد علي طه سلوك الجيش تجاه كلّ ما يرمز إلى الثقافة من كتب ورسم ومسارح وفن وأدب، فيقول: "وكيف نزور رام الله ولا نعرج على "مركز خليل السكاكيني" مكتب الشاعر الكبير أخينا أبي سليم محمود درويش، لنبحث عن اللوحات التي شوهها العساكر وعما بقي من الصرح الثقافيّ الذي أغار عليه الجنود المتحضرون. يكرهون الثقافة الفلسطينيّة!! يعادون الثقافة!! اغتالوا كمال ناصر الشاعر الرقيق واغتالوا غسان كنفاني القاص والروائي والباحث الكبير، واغتالوا ماجد أبو شرار الكاب المثقف الثوري واغتالوا واغتالوا.. واغتالوا "مركز خليل السكاكيني"، واغتالوا "بيت الشعر" ووزارة التربية، واغتالوا معارض الرسم والمكتبات والمسارح"(طه، 2017، ص224).

وليس خافيًا على أحد ما قامت به إسرائيل وأذرعها الأمنية من تصفية لقائمة طويلة من الأدباء والشعراء والفنانين الفلسطينيين، من بينهم غسان كنفاني وكمال ناصر وراشد حسين وعز الدين قلق ويوسف نصر وماجد أبو شرار وعبد الوهاب الكيالي ونعيم خضر وحنا مقبل وناجي العلي وفتحي الشقاقي وجمال سليم وابراهيم المقادمة ورامي سعد وعبد العزيز الرنتيسي، وغيرهم، وما هذه الاغتيالات إلّا خير دليل على خوف إسرائيل من الكلمة، ومن الثقافة، وعلى ضعف روايتها مقابل الرواية الفلسطينيّة التي يصوغها هؤلاء الأدباء والشعراء والفنانون.

أمّا تجلّيات محاربة إسرائيل للثقافة العربيّة، إن كان ذلك من خلال تدخّلها المباشر في وضع المناهج التدريسيّة "لم ندرس نصًّا أدبيًّا لمبدع فلسطينيّ، بينما درسنا قصائد "بيالك" ومقالات "أحاد هعام".. وكانت مناهج التدريس سيئة، فالنصوص الشعرية في منهاج اللغة العربية تنتهي عند قصيدة أبي الهول لأحمد شوقي، وكانت المختارات الشعرية من العصور القديمة تنحصر في وصف الطبيعة وتخلو من أي نفس قومي أو وطني، ولا بأس من قصيدة لأبي نواس يذمّ العرب فيها. لم ندرس الرواية، أو القصة القصيرة، أو القرآن الكريم أو الحديث النبويّ الشريف، في حين درسنا في اللغة العبرية أجزاء من التوراة مثل سفر الخروج وسفر يهوشع والمزامير"(طه، 2017، ص88).

أمّا فيما يتعلّق بالتاريخ، فتعمل المؤسّسة الصهيونيّة من خلال جهاز التربية والتعليم على وضع مناهج تدريسيّة خاصّة بالتاريخ اليهودي، وتاريخ الحركة الصهيونيّة، متجاهلة التاريخ العربي والحضارة الإسلاميّة على مرّ العصور والأزمان "لم ندرس تاريخ العرب، في حين درسنا تاريخ اليهود القدماء وتاريخ الحركة الصهيونيّة منذ مؤتمر بازل وهرتسل حتى دافيد بن غوريون"(طه، 2017، ص88)، وكان من الواضح أنّ الهدف الأساس من وراء ذلك كلّه هو محو كلّ ما يتعلّق بتاريخ هذه البلاد وأهلها ولغتها وحضارتها وثقافتها "وكانت كلمة "فلسطين" محرّمة وممنوعة منعًا باتًّا، كانت مواد التاريخ تذكر أرض "إسرائيل" بدل "فلسطين"، فالصليبيون مثلًا احتلّوا أرض إسرائيل، وهكذا"(طه، 2017، ص88).

ولمّا كانت إسرائيل تدرك أنّ الصراع هو على التاريخ والجغرافيا، فقد عملت جاهدة على قلب الحقائق والمسمّيات، وتحاول بشتى الطرق والوسائل أن تنسب هذه الجغرافيا وهذه المسميات لها؛ فكان أن قامت بعبرنة الأسماء ودحر الأسماء الأصلية وتغييبها بل محوها "كنا ندرس ستة مواضيع، هي: اللغة العربية، اللغة العبرية، اللغة الإنجليزية، الرياضيات، التاريخ و"معالم إسرائيل"، أي جغرافيا بلادنا، وكنا نكره هذا الموضوع لأنّ موادّه دعائيّة وليست علميّة، ويركز على الأسماء العبرية لمواقع البلاد، فالسهل الساحلي هو سهل الشارون وسهل زبولون، وأما جبل الجرمق فهو جبل ميرون، وبحيرة طبريا هي كنيرت، وجبال الروحة هي هضاب منشة، ونهر العوجا هو اليركون، ونهر المقطّع هو الكيشون، وهكذا.. وكان مدرّس هذا الموضوع لا علاقة له بالجغرافيا"(طه، 2017، ص88-89).

ومن المعروف أنّ الحكومة المتمثّلة بوزاراتها المختلفة، كوزارة المعارف والثقافة، تنظر بكثير من القلق والتفحّص نحو كلّ ما يُنشر من أدب عربيّ، شعرًا ونثرًا، على صفحات الجرائد والمجلّات والكتب المختلفة، وتراقب ذلك باهتمام بالغ، ولا تتردّد في منع نشر أو حذف أيّ نصّ يتعارض ومصالحها أو سياستها بحجّة أنّ ذلك أدب تحريضيّ "وفي السبعينات من القرن الماضي، نشرت صحيفة

"معاريف" خبرًا بارزًا عن ظهور أدب عربيّ قوميّ متطرّف يكتبه أديب عربيّ من الجليل، وأنّ الدوائر المختصّة عقدت عدّة اجتماعات لمعالجة هذه الظاهرة الخطرة لأنّ هذا الأدب يحرّض على دولة إسرائيل"(طه، 2017، ص128).

وقد مارست السلطة مختلف أساليب الوعيد والتهديد تجاه المعلّمين، وفصلت واستبعدت الكثير منهم لأسباب "أمنيّة"، فقد "كان للسيد غديش[مدير المعارف العربيّة آنذاك] قول مأثور: إذا اعتقد أحد المدرسين بعد عمل عدة سنوات أنّه مثبّت في العمل مثل المسمار الذي بدون طبعة في قطعة خشب، فإنّي أستطيع أن أضع "طبعة" وأسحبه بالشاكوش.. وكان رئيس حكومة إسرائيل دافيد بن غوريون قد صرّح بأنّ لا مكان للشيوعيّين في وزارة المعارف والدفاع، وكان مدير المعارف العربية اسمه يوسف غديش وكانت صحيفة الاتّحاد تكتب اسمه "كديش"، أيّ فرس العمل، فيحتجّ عليها وكان يفصل عددًا من المعلمين في نهاية كلّ عام دراسيّ بتهمة الشيوعيّة"(طه، 2017، ص110).

ولا شكّ أنّ سياسة الترهيب هذه كانت تلقي بظلالها ليس على الكاتب فقط، بل على المعلّمين كافّة فيقول: "كان الجوّ الدراسيّ في المدرسة قاتمًا، وكنت أشعر أنّني مراقب في كلماتي وحركاتي"(طه، 2017، ص111)، ويضيف في موضع آخر: "في الفاتح من تشرين الأوّل عام 1970 كنت حزينًا في ذلك النهار ومحبطًا. كان جوّ العمل في المدرسة قاتمًا (بعد النكسة وموت عبد الناصر وحرب الاستنزاف)، وكنت أشعر بأنّني مراقب وملاحق ولا أستطيع أن أتحدّث مع زملائي المدرّسين بأيّ موضوع من مواضيع الساعة"(طه، 2017، ص116).

وقد تعرّض الكاتب للتهديد المباشر بفصله من عمله في المدرسة في أكثر من مناسبة بسبب مواقفه السياسيّة التي لم يستطع إلّا أن يعبّر عنها أكثر من مرّة "استدعاني الحاكم العسكري كما استدعاني المفتش إلى مكتبه في الناصرة، وعبّر عن غضبه من نشر قصصي في مجلة "الجديد" باسمي الصريح، كما احتجّ على موضوع قصة نشرتها في مجلة "الشرق"، قال لي: كنت تكتب باسم مستعار وكنا نعرف ذلك، فلماذا صرت تنشر قصصك بالاسم الصريح؟ هذا تجاوز للخط الأحمر، أنصحك نصيحة لوجه الله تعالى: "الباب الذي تأتي منه الريح سكره وأستريح"(طه، 2017، ص111)، وحين رفض عرض "مار غولين" بأن يكون مفتّشًا للّغة العربيّة قال له: "أنت ناشط سياسيّ، تخطب في الاجتماعات، تحاضر في النوادي، وتدرّس الطلاب موادّ خطرة وممنوعة، أنت تفسد عقول الطلاب وتحرّضهم على الدولة، نحن لا نحتملك!!" (طه، 2017، ص130).

وكان على المعلّم أن يلتزم بالمنهاج والمواد التدريسيّة المقرّرة، "كان مدرّس اللغة العربية رجلا وطنيا يغمر بالخروج عن المادة الدراسية المقررة من وزارة المعارف، ويقرأ لنا نصا أدبيا من كتاب أو مجلة يحرص أن يلفّه أو يلفّها بغلاف للتمويه مخافة أن يشي به أحد الطلاب إلى الحاكم العسكري" (طه، 2017، ص88)، وكان جهاز المخابرات يتدخّل بشكل مباشر في تعيين المعلّمين وفصلهم من جهاز التربية والتعليم. ويقول في موضع آخر: "كنا (يقصد المعلمين) نتجنب الحديث في السياسة، فلا نتحدث عن وحدة مصر مع سوريا، ولا نذكر خطابات جمال عبد الناصر التي كنا نسمعها من الراديو في بيوتنا ولا نذكر مواقف عبد الكريم قاسك أو الملك حسين. كنا نخشى أن يشي بنا أحد الحاضرين للحاكم العسكري، فقد كنا نشك بأن الحاكم قد وزع في كل مكان رجلا يراقبنا، وقد نتعرض للتحقيق والإهانة وربما الفصل من العمل"(طه، 2017، ص109-110).

وينبغي أن نشير هنا، إلى أنّ الطلاب العرب قد استفادوا من بعض القوانين التي سُنّت؛ ومنها قانون التعليم الإلزامي "فتدفّق البنون والبنات في المدن والقرى العربية الباقية إلى المدارس"(طه، 2017، ص75)، واستفادوا أيضًا من بعض الامتيازات؛ ومنها أنّ وزارة المعارف كانت "تجري امتحانًا سنويا للطلاب المتفوّقين في الصفوف الثامنة في جميع مدارس البلاد، وتختار 25 طالبًا فقط منهم لتعفيهم من القسط الدراسيّ في المدرسة الثانويّة، وكنا نسمّي تلك الامتحانات بامتحانات الثوامن أو امتحانات الإعانة"(طه، 2017، ص85)، فقد كانت هذه القوانين والتسهيلات والامتيازات مخصّصة لغير العرب أساسًا، ولكنّ الطلاب العرب قاموا باستغلالها على الوجه الأكمل، وكان ذلك خير ردّ على تلك السياسات العنصريّة التي تهدف إلى جعل العرب حطّابين وسقاة ماء كما صرّح قادتهم في كثير من المناسبات.

والواقع أنّ هذه السياسة التي تقوم بها الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة، والمتمثّلة بوزارة التعليم، ما زال قسم كبير منها قائمًا وحاضرًا؛ فقد نشرت صحيفة "الاتّحاد"، على سبيل المثال، خبرًا يفيد بتقديم مركز "عدالة" التماسًا للمحكمة المركزيّة ضدّ مناقصة من قبل وزارة التعليم، تشترط على الجهات المعنيّة المتقدّمة الامتثال للبندين التاليين:

- عدم الاعتراض على قيام دولة إسرائيل، وعدم الاعتراض عن كونها دولة يهوديّة وديمقراطيّة.
- عدم احياء يوم النكبة الفلسطينيّة والاعلان عنه كيوم حداد.(صحيفة "الاتحاد"، 15 نيسان 2022، ص3).

5-3 اليهوديّ والأرض:

منذ قيام دولة إسرائيل وحتى يومنا هذا، تعمل المؤسّسة الصهيونيّة على تنفيذ مخطّط عنصريّ يهدف إلى مصادرة أراضي العرب الفلسطينيين في إسرائيل والاعتداء عليها بأشكال مختلفة؛ بدءًا من إعلان الحكومة عن "مناطق الأمن" عام 1949، والإعلان عن

مناطق واسعة "مناطق مغلقة"[1]، مرورًا بسنّ عشرات القوانين العنصرية المختلفة مستغلّة أنظمة الطوارئ، وعلى رأسها قانون مصادرة "الأراضي البور"[2]، وقانون الغائبين[3] عام 1950.

إضافة إلى مثل هذه القوانين، قامت الحكومات بمصادرة مساحات واسعة من أراضي الجليل، لتنفيذ مشروع أطلق عليه اسم "تهويد الجليل"، ولاحقًا في النقب، في مطلع 1975، وأثارت هذه المصادرات نقمة واسعة بين الجماهير العربيّة، خاصّة بعد الإعلان عن مصادرة الأراضي في منطقة عرّابة وسخنين ودير حنا، حيث كان يوم الأرض في 30 آذار 1976، وخلاله ارتقى ستة شهداء دفاعًا عن الأرض.

ولم تتوقف مصادرة الأراضي والاعتداء عليها وهدم البيوت في جميع المناطق المحتلّة، بل هي في تصاعد وازدياد دائم، ومن نافل القول إنّ الأرض هي العرض وهي التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي الحياة والاستقرار والأمان بالنسبة للفلسطينيّ، فلا عجب أن والد الكاتب كان عندما ينام يغمض عينا واحدة، فقط، وتبقى العين الثانية مفتوحة نتيجة ذلك الشلل (الذي أصابه عقب مصادرة أرضه)، فقد حاول أن يدافع عن أرضه بكلّ ما أوتي من قوّة، مسلّحًا بالحقّ والإيمان، وأن يقنعهم بحقّه في الأرض، ولكنّهم رفضوا ادعاءاته، وحاول أيضًا أن يستأجر الأرض، مقابل مبلغ سنويّ يدفعه كل موسم، ولكنّ جميع محاولاته باءت بالفشل، فرفضوا، وشوّه الشلل وجهه، "عاش بعد ذلك الحادث خمسة وثلاثين عامًا.. ينام وقد أغمض عينا وأبقى أختها يقظة"(طه، 2017، ص54). ويتساءل الكاتب: "هل هو الحذر أم القلق؟ هل كانت عينه تحرس ما تبقى لنا؟ تحرس بقاءنا؟ وجودنا؟ حياتنا؟ كان أبي ينام يقظًا، نوم العزلان، نوم ناطور الدار وحارس الكرم!! ماذا قالوا له حتى بقي مستيقظًا لا ينام كالآخرين؟"(طه، 2017، 55).

وبعد نكسة حزيران 1967، حين أيقن اللاجئون الذين يسكنون الأكواخ التنكيّة أنّ القصّة طالت وستطول، راحوا يهدمون الأكواخ ويبنون بيوتًا من البلوكات والباطون مثل بيوت أهل القرية، "فأرسلت "دائرة أراضي إسرائيل"، وريثة الوقف الإسلامي، رسائل تنذر هؤلاء اللاجئين بإخلاء بيوتهم، قبل أن تهدمها، بحجّة أنها قائمة على أراضي الدولة، أو أن يستأجروا الأرض من الدولة بمبالغ باهظة بالنسبة إلى دخلهم أو أن يتنازلوا عن أراضيهم في قراهم المهجرة مقابل قطع الأرض الصغيرة التي استعملوها"(طه، 2017، ص84). ويتّضح أن الحكومة كانت تؤجّر هذه الأراضي لليهود ليفلحوها "نحن استأجرنا هذه الأرض من الحكومة" (طه، 2017، ص136).

فإسرائيل لم تصادر ولم تنهب الأرض فقط، بل نهبت كواشين الأرض، وكواشين البيوت أيضًا "كنت يومئذ في السادسة أو السابعة من عمري.. بقيت شهادة ميلادي مع كواشين الأرض وكوشان البيت وشهادة زواج والدي، وأوراق أبي القليلة الأخرى في اسطوانة من التنك في خزانة الحائط، وبعد أشهر معدودة حينما عدنا إلى البيت وجدت العائلة بقايا الأثاث، ولم تجد شيئًا في الخزانة"(طه، 2017، ص19)، وكان هدفها أن لا عودة إلى هذه البيوت وهذه الأراضي، وبلهجة لا تخلو من الألم والحسرة، يذكر الكاتب تلك المفارقة التي لا يستوعبها العقل السليم؛ حين تتحوّل البيوت العربيّة بعد نهبها وسرقتها ومصادرتها إلى بيوت دعارة، يعرضها من يعرضها للإيجار لبعض ساعات مقابل مبلغ زهيد!! فحين زار الكاتب قرية الزيب المهجّرة، بالقرب من نهاريّا، برفقة باحثة جامعيّة فلسطينية تقيم في لندن، ووصلا إلى مدخل بيت "عطايا" مختار القرية، البيت الوحيد الباقي هناك، وجدا السيد "إيلي أفيفي" يقف عند المدخل ويعرض على الكاتب أن يستأجر غرفة نوم "عطايا" وسريره مقابل مبلغ مالي زهيد "لقد حولوا بيت "عطايا" وديوانه وغرفة نومه إلى مبغى!!" (طه، 2017، ص157).

6-3 اليهوديّ والمقدّسات:

لم تسلم دور العبادة والمساجد والمقدّسات وقبور الأولياء من النهب والسرقة، فكان حالها حال الأرض والبيوت الأخرى؛ إذ لا تقيم المؤسّسة أيّ اعتبار لهذه المقدّسات "دخل اليهود القرية، لعلع الرصاص وتطايرت قبة المسجد.. دويّ قويّ.. حجارة تتطاير.. دخان كثيف.. وبدأ الناس يرحلون"(طه، 2017، ص28)، وما زالت المقدسات الإسلاميّة والمسيحيّة تتعرّض لهذه الاعتداءات، ولأعمال التدنيس يوميًّا، ويكفي أن ننظر إلى المسجد الأقصى اليوم وكلّ يوم، لنرى كيف يتمّ الاعتداء عليه وتدنيسه من قبل قطعان المستوطنين والعنصريين وإحراقه كما جرى عام 1969، وكيف يتمّ اعتقال وضرب وسجن من يدافع عنه.

(1) لا يحقّ للعرب التواجد فيها، كما حدث لعديد من القرى كالغابسية، والمجيدل، ومعلول، وصفورية، والدامون، وميعار، وكفربرعم، واقرث، وسحماتا وغيرها. وكان الهدف من ذلك منع سكان هذه القرى من العودة اليها.

(2) إذ يعلن وزير الدفاع عن أراضي قرى معينة، مناطق مغلقة يمنع الدخول اليها إلا بتصريح، وكان الردّ بالرفض على إعطاء مثل هذه التصاريح، فتتحوّل إلى أرض بور، وكان وزير الزراعة يضع يده عليها بحجّة أنها أرض بور غير مفلوحة، ومن ثمّ يمنحها للكيبوتسات والمستوطنات لفلاحتها.

(3) وبموجب هذا القانون استولت الدولة على آلاف الدونمات من الأراضي، والغائب حسب مفهوم هذا القانون العنصري هو كل شخص كان مواطنًا فلسطينيًا، ترك في أي وقت بعد 47/11/29 (يوم صدور قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة) وحتى 48/9/1، مكان إقامته الاعتيادي في فلسطين، إلى مكان خارج فلسطين او الى أي مكان كان تحت سيطرة قوات أرادت منع قيام دولة إسرائيل.

ولم يكن حظّ القبور ومقامات الأولياء الصالحين بأفضل من ذلك، فقد أقدم اليهود المتديّنون على مقام "الصدّيق" في سخنين، وهو وليّ كان سكّان البلدة يقدّسونه ويتبرّكون به ويحلفون به ويزورونه ويقدّمون له القرابين "وقد حدث لهذا المقام ما حدث لمدن وسهول وجبال هذا الوطن، فبعد عشرة أعوام على قيام دولة إسرائيل استولى اليهود المتدينون على المقام ورمموا البناء وأقاموا حوله سورا وغيروا اسمه إلى رابي يهوشع دي سخنين!"(طه، 2017، ص38)، وبكثير من السخرية يتساءل الكاتب: "هل كان سيدنا الصديق يهوديًّا طيلة قرون ولم يخبرنا بذلك؟"(طه، 2017، ص38).

وبقي أن نضيف هنا، أنّ جميع المحاولات القضائيّة وغير القضائيّة التي قام ويقوم بها السكّان العرب من أجل استرداد أراضيهم وبيوتهم ومقدّساتهم ذهبت هباء منثورًا حتّى اللحظة، بل إنّ المؤسسة تنظر إلى حقّ العودة بخطورة بالغة يهدّد كيانها ومصيرها، وفي الجهة المقابلة، يرى الفلسطيني هذا الحقّ من الثوابت التي لا يمكن بأيّ حال التنازل عنه، وكان شعاره دائما ولا يزال أن لا عودة عن حقّ العودة رغم كلّ الظلم، ورغم انعدام الإيمان بالعدالة الذي يشير إليه الكاتب حين يقول: "وما فائدة استصدار قرار بالعودة من محكمة العدل العليا؟ إذا كان حاكمك ظالمك تشكو أمرك لمين؟"(طه، 2017، ص35). فهدم القرى المهجّرة هو جزء من سياسة ممنهجة تهدف إلى مسح المعالم التاريخيّة، وليس فقط جزءًا من عمليات العقاب التي مارسها اليهود ضدّ الفلسطينيين سكّان البلاد الأصليّين ومنع عودتهم إلى قراهم ومدنهم وفرض سياسة الأمر الواقع.

3-7 اليهوديّ والمسمّيات:

منذ نكبة عام 1948، وحتى يومنا هذا، تعكف المؤسّسة الإسرائيليّة على مسح الآثار والشواهد التاريخية التي تدلّ على هوية المكان، وتغيير المعالم والأسماء الدالّة على أصحابه الأصليين، ويأتي استهداف الأسماء ضمن حملة عنصريّة تفضي إلى اقتلاع الإنسان الفلسطيني وأصله، والسيطرة على الأرض التاريخ والجغرافيا؛ إذ طالت سياسة العبرنة أكثر من 9000 اسم لأماكن مختلفة في البلاد أشار إليها باحثون بريطانيون في القرن التاسع عشر، وآلاف المواقع ظهرت أسماؤها بالعربية في خريطة وزّعها الاستعمار البريطاني عام 1948، وكان 5% من بينها أسماء عبرية أو قديمة فقط، كما تقول الباحثة الإسرائيليّة "نوعا كدمون"، في كتاب "على قارعة الطريق وعلى هامش الوعي"؛ إذ تشير إلى عدم الاكتفاء بطرد السكان من أرضهم ومن قراهم، بل إلى ضرورة تأسيس حيز جديد للأسماء ينسجم مع الرواية الصهيونيّة ينظر في: (مصطفى كبها: في مواجهة تهويد معالم البلاد ومسمياتها. 10-11-2017 https://www.arab48.com)، وبالتالي، فإنّ هدف هذه السياسة هو تشكيل ما يعرف بسياسة "خلق الأمر الواقع" التي تهدف إلى خلق وقائع جديدة على الأرض، ثقافيًا وديموغرافيًا وجغرافيًا، توحي بأنّ هذه المواقع والأماكن والبلدات هي يهوديّة، وقد عبّر دافيد بن غوريون عن ذلك بقوله: "علينا إبعاد الأسماء العربيّة لاعتبارات سياسيّة، ومثلما لا نعترف بالملكيّة السياسيّة للعرب على هذه البلاد، فإنّنا لا نعترف بملكيّتهم الروحانيّة وبأسمائهم" (ينظر في: مصطفى كبها: في مواجهة تهويد معالم البلاد ومسمياتها. 10-11-2017 https://www.arab48.com).

وبالمقابل، يتشبّث الفلسطينيون، في ظلّ هذا الصراع المحتدم على الأسماء والتاريخ والجغرافيا والوجود، بهذه الأماكن والمواقع والسهول والجبال والأنهار، ويعيدون تشكيل مسمّياتها، من خلال البحث والتنقيب وإعادة الاعتبار لهذه المسمّيات في إطار صيانة الذاكرة الوطنيّة ونقلها إلى الأجيال القادمة، ويعمل الكثير من الدارسين، على إصدارات توثّق الأسماء العربيّة، وكذلك تفعل العديد من الجمعيّات والمؤسّسات على مثل هذا التوثيق، إضافة إلى ما تقوم به البلديّات والمجالس المحليّة في القرى والمدن العربيّة من إطلاق أسماء عربيّة على مؤسساتها وشوارعها، ردًّا على سياسة عبرنة الأسماء وعلى القوانين العنصريّة التي تهدف إلى تقويض اللغة العربيّة والأسماء العربيّة كقانون القوميّة.

ومن أجل تمرير مثل هذا المخطّط، عملت المؤسّسة الإسرائيليّة على إدخاله ضمن المواد التعليميّة والمناهج الدراسية، في مواضيع كالتاريخ والجغرافيا أو ما يُعرف بـ "معالم إسرائيل"، وكانت موادّه دعائيّة صرفه أبعد ما تكون عن العلميّة والموضوعيّة "ويركز على الأسماء العبرية لمواقع البلاد، فالسهل الساحلي هو سهل الشارون وسهل زبولون، وأمّا جبل الجرمق فهو جبل ميرون، وبحيرة طبريا هي كنيرت، وجبال الروحة هي هضاب منشة، ونهر العوجا هو اليركون، ونهر المقطّع هو الكيشون، وهكذا.. وكان مدرّس هذا الموضوع لا علاقة له بالجغرافيا"(طه، 2017، ص88-89). أمّا مستشفى "رمبام" وهو من أشهر المستشفيات الحكومية في البلاد، الذي كان يُسمّى مستشفى حمزة في زمن الانتداب البريطاني على اسم صاحبه د. حمزة، فقد غيّرت حكومة اسرائيل اسمه إلى مستشفى "رمبام" والكلمة هي اختصار "رابي موسى بن ميمون"، العالم والفيلسوف اليهوديّ ابن الحضارة العربيّة الاسلاميّة"(طه، 2017، ص142).

3-8 اليهوديّ والحكم المحليّ:

أمّا وقد ولّى عهد المخاتير إلى غير رجعة، وحلّت السلطة المحليّة مكانه، ممثّلة برئيسها وأعضائها المنتخبين، فإنّ المؤسّسة الإسرائيليّة بأجهزتها المختلفة، خاصّة جهاز المخابرات، تضع هذه السلطة تحت أعينها، وتراقب عن كثب ما يجري داخلها، بل وتبذل كلّ ما في وسعها، بالإغراء والوعود الكاذبة أحيانًا، وبالتهديد والوعيد أحيانًا أخرى، من أجل ضمان الشخصيّات التي تفضّلها على غيرها في

رئاسة وعضويّة السلطة المحليّة، والحيلولة دون وصول الشخصيّات الأخرى غير المرغوب بها. ولمّا كان الكاتب ينتمي إلى الحزب الشيوعي، وكان هذا الحزب وما يزال يشكّل مصدر قلق يقضّ مضاجع المسؤولين والمؤسسة والأجهزة الأمنية، فقد عملوا طوال الوقت على محاربته بشتى الطرق والوسائل لمنعه من الوصول إلى السلطة المحليّة "وكانت السلطة المركزيّة الممثلة بالأحزاب الصهيونية وعملائها يحاربونني بشراسة ويغرون الناخبين بالوظائف أحيانا، وبالتهديد والوعيد أحيانا أخرى"(طه، 2017، ص146).

ومن الطريف أن تقوم الشرطة بمداهمة مطبعة ودار نشر أبو رحمون، في مدينة عكا، ومصادرة نسخ مجموعة الكاتب القصصية "وردة لعيني حفيظة"، واعتقال الأخوين أبو رحمون، على خلفيّة الانتخابات؛ إذ شعروا بأنّ محمد علي طه سيفوز بها، فيشير إليه أحد الأصدقاء بأن "عليك أن تتوقع اعتقالك قريبًا، أقترح عليك ألا تنام هذا الأسبوع في بيتك"(طه، 2017، ص146).

وللحيلولة دون وقوع الأسوأ بالنسبة للمؤسّسة، وفوز الكاتب، مرشح الحزب الشيوعي برئاسة السلطة المحليّة "قام موظفو الحكومة وممثلو الأحزاب الصهيونية بحملة نشطة في القرية واستطاعوا أن يقنعوا عائلة كبيرة كانت قد أعلنت دعمها وتأييدها لي بالتحول إلى تأييد المرشح المنافس، كما أغروا البعض بالوعود الكاذبة"(طه، 2017، ص147)، وفي موضع آخر يذكر الكاتب أنّ الشبان الوطنيّين كانوا "يردّدون في تلك الأيام (انتخابات الكنيست الرابعة) "صوّت قاف ولا تخاف" (حرف قائمة الحزب الشيوعي وغير الحزبيين)، "متحدّين السلطات العسكريّة وأجهزة السلطة من شرطة ومخابرات وموظفين في الدوائر الحكومية التي كانت تمارس الضغوط والإرهاب على الشيوعيين ومن يقترب منهم أو من يقرأ صحافتهم"(طه، 2017، ص257).

ولم يكن أمر الانتخابات العامّة "الكنيست"، بأفضل مما كانت عليه الانتخابات المحلية؛ إذ تقوم المؤسّسة الإسرائيليّة بكل أجهزتها وأذرعها، إضافة إلى الأحزاب الصهيونية، والداعمين لها من المواطنين العرب، بكلّ ما يمكن القيام به من سنّ قوانين، كقانون رفع نسبة الحسم من 2% إلى 3.25% بناء على تنسيق بين نتنياهو وحزب الليكود وبين وزير خارجيّته، النائب اليميني المتطرف أفيغدور ليبرمان آنذاك، "كي يخرجا الأحزاب الفاعلة في الساحة العربية من التمثيل البرلماني(طه، 2017، ص263-264)، إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه الأطراف مجتمعة تشنّ حملة إعلاميّة عنصريّة ضدّ القوائم العربيّة، وتعمل على إخراجها من حلبة الصراع السياسي "قانونيًّا"، ولا تتورّع عن دفع الأموال ونشر الوعود الكاذبة بالوظائف الوهميّة لشرائح وفئات معيّنة من أجل عدم التصويت لها، وبالتالي، إسقاطها، فهذا الترانسفير السياسيّ هو جزء من المخطّط العام، ومقدّمة "لترانسفير وجودي ينادي به أفيغدور ليبرمان علانية"(طه، 2017، ص263-264).

3-9 اليهوديّ والخوف:

إنّ إحدى الصفات الملازمة لليهوديّ في هذا العمل هي الخوف، فاليهوديّ يخاف من الفلسطينيّ، وحاول أن ينكره، ومن لغته، فعمل على عبرنتها، ومن تاريخه، فحاول تزويره ومحوه، ومن حضوره، فلاحقه وسجنه وعذّبه، ومن شجاعته، فحاول ترهيبه وتهديده، ومن صموده، فحاول كسره وإذلاله، ومن حقّه في هذه الأرض، فصادرها وصادر كواشينها، ومن تواجده في مناصب قياديّة فمنعه من الوصول إليها، ومن احتلاله مواقع التأثير فلاحقه وهدّده.

فاليهوديّ يعيش حالة خوف دائمة لأنّه يدرك تمامًا ضعف روايته أمام الرواية الحقيقيّة للشعب الفلسطيني، ولأنّه يعلم علم اليقين حقّ الشعب الفلسطيني في هذه الأرض؛ فعندما صرخ الكاتب في وجوه الشبان الذين حاولوا منعه من الدخول إلى الأرض، بأن لا أحد يستطيع أن يمنعنه من دخول أرضه، ولوّح بالمنجل واقترب منهم، قال كبيرهم: "نعرف ما معنى أن تكون هذه الأرض لك. تستطيع أن تحصد ما تشاء من الحشيش، ومتى تشاء، ولكن نرجوك أن تحافظ على فسائل الأفوكادو.. وصعدوا إلى سيارة الجيب وانصرفوا"(طه، 2017، ص136)، ومعنى ذلك، أنّ كلّ ما يقوم به اليهوديّ، وكلّ ما تفعله الحكومات وأجهزتها المختلفة من مصادرة واقتلاع وهدم وتدمير وقتل واغتيال، قائم على الخوف، "يقتلوننا لأنهم يخافون منا.. يقتلوننا لأنّهم يعرفون من صاحب الأرض وصاحب الزيتون والصبّار.. يقتلوننا لأنّهم يعرفون من صاحب حوض النعناع، يقتلوننا لأنّهم أكلوا اللحم النيء، ويخافون من وجع البطن.. إنّهم يخافون.. يخافون.. يخافون الفجر البازغ.. الآتي.. الآتي"(طه، 2017، ص216).

ويتجلّى الخوف لدى اليهوديّ في كثير من المناسبات والتصرّفات والسلوكيّات؛ فعندما زار الكاتب صحافي إسرائيلي من إذاعة اسرائيل العبريّة لإجراء مقابلة معه، ذُهل حين وجد كوكبة من الأطفال يلعبون أمام البيت، "وما أن دخل البيت حتى بادرني بسؤال وقح واستفزازي، لماذا يوجد أطفال كثيرون في الساحة، وعلى درجات البيت؟"(طه، 2017، ص133).

والواقع أنّ مثل هذا السؤال ينطوي على خوف وقلق شديدين؛ إذ أنّ اليهود يخافون بشكل كبير من موضوع اختلال التوازن الديموغرافيّ في الدولة، فعملوا على سنّ قوانين نحو: منع تعدّد الزوجات، منع لم الشمل، منع حقّ العودة، تشجيع العرب على الهجرة، وما إلى ذلك من خطوات عمليّة تهدف إلى الحفاظ على الوضع الديموغرافيّ الحالي والحرص على عدم اختلاله.

10-3 اليهوديّ والإعلام:

دأب اليهوديّ على الظهور بمظهر الضحيّة، ويلبس ثوب المضطَهَد، وبأنّ الآخر لا يكنّ له الاحترام، ويحتقره ويلاحقه، وبالتالي، فقد وظّف الماكينة الإعلامية في هذا الاتجاه، من أجل أن يستدرّ عطف وودّ شعوب العالم، ووظّف الإعلام في سبيل إظهاره بمظهر المعتدى عليه، فلا تجد هناك إعلامًا موضوعيًّا خاصّة في وقت الحرب، بل تجد الإعلاميين والصحافيين كافّة يقفون صفًّا واحدا في خدمة الآلة الحربيّة، وتختفي جميع الأصوات "العقلانيّة" المنتقدة "اعتاد الإعلام الاسرائيليّ، صحافة وإذاعة وتلفزيونا، تأييد أيّة حرب تشنّها اسرائيل على أعدائها العرب، واعتادت الأحزاب الاسرائيليّة الصهيونيّة التسابق في تأييد الحرب و"الشوشرة" الحربيّة.. هكذا تكون الأمور في الأيام الأولى، وبعدئذ تظهر أصوات خجولة ناقدة ثم تقوى يومًا بعد يوم"(طه، 2017، ص172).

ليس ذلك فحسب، بل إنّ الأجهزة الأمنيّة وأذرعها تراقب كلّ تصريح يندّد بسياسة الحكومة ويعارض هذه الحرب أو تلك، ويشجب هذه المجزرة أو تلك المذبحة، فقد "أنتج محمّد بكري فيلمه الشهير "جنين جنين" الذي أثار زوبعة بل عاصفة في المجتمع الاسرائيليّ، وتعرّض محمّد بكري إلى حملة عنصريّة من الإعلام الإسرائيليّ ومن وزراء إسرائيليين ومن قادة بعض الأحزاب ووصل الأمر إلى المحكمة"(طه، 2017، ص219). ولا يتردّد اليهوديّ من طرد أيّ إعلاميّ، وإقفال أيّة قناة أو مؤسّسة إعلاميّة لا تتماهى ومواقفه وسياسته، علمًا بأنّ هذا عمل غير قانونيّ دوليًّا، وغير شرعيّ، فيحاول بشتّى الطرق أن يطمس الحقيقة، ويمحو معالم وآثار جرائمه الحربيّة وغير الحربيّة، ويريد أن يتحكّم بالمسمّيات والمصطلحات، ويراهن على أنّ الشعب الفلسطيني سوف ينسى تاريخه وقضيّته، وسوف يخضع للأمر الواقع، وينصهر مع الواقع الجديد، فها هو جدعون عزرا، اليميني المتطرّف، يثور على الكاتب عندما يسمع أنّه يريد إحياء النكبة بالمسيرة التي تقام سنويًّا بهذه المناسبة، وفيها يتمّ تنظيم المسيرات الشعبية وزيارة القرى المهجّرة، وإقامة مهرجان مركزيّ في إحدى القرى المهجّرة، ويصرخ مخاطبا الكاتب:

- "من أين جئت لنا بالنكبة؟

يسألني هذا العنصريّ اليمينيّ (جدعون عزرا) هذا السؤال الاستفزازيّ الوقح.

وبدأ يروح ويجيء في غرفة الانتظار مثل ثور إسبانيّ هائج ويتمتم كلمات أفهمها وكلمات لا أفهمها، خمسون عاما، الناس نسوا، من أين جئت لنا بالنكبة؟ ألم تتعلموا الدرس؟" (طه، 2017، ص191).

فالهدف واضح وبيّن، وهو محاولة طمس الحقيقة، وطمس كلّ ما هو متعلّق بتاريخ الشعب الفلسطيني، أمّا لهجة التهديد والوعيد، فهي جزء من هذا الخطاب الاستعلائيّ الفوقيّ الذي يستخدمه اليهوديّ حين يخاطب الفلسطينيّ، ظنًّا منه بأنّ الزمن لم يتحرّك، وأنّ ما حدث في النكبة والنكسة يمكن أن يتكرّر. وما يثير السخريّة هو أن يتحدّث اليهودي في إعلامه وأدبه وثقافته عن الإرهاب!! فهم يصدّرون روايتهم ويجعلون من الفلسطيني الذي يدافع عن قضيّته ووطنه وبيته وأرضه ومقدّساته إرهابيًّا، "ذبحتنا العصابات الصهيونية في الأسواق العامة وفي المشاغل والمصانع وفي المساجد وفي البيوت وفي ساحات القرى والمدن..

ذبحونا في دير ياسين والطنطورة والدوايمة وعيلبون واللد والرملة وطبريا وكفر قاسم و.. ذبحونا في مسجد دهمش.

ويتحدّثون عن الإرهاب الفلسطيني؟"(طه، 2017، ص15).

11-3 اليهوديّ واليساريّة:

لمّا كان الكاتب، كما أسلفنا، رفيقًا في الحزب الشيوعيّ، فقد آمن بالقوى التقدّميّة اليساريّة داخل المجتمع اليهوديّ، من أجل تغيير الواقع؛ إذ يستحيل في ظلّ الأوضاع السائدة أن ينجح العرب وحدهم في مكافحة ومناهضة العنصريّة والاحتلال "يجب أن نعمل مع هؤلاء الناس (اليهود) كي نغير الواقع الصعب، لا يمكن أن ننجح وحدنا في مكافحة العنصريّة والشوفينيّة والاحتلال والاستيطان، نحن بحاجة إلى قوى ليبيراليّة في المجتمع اليهودي الإسرائيلي"(طه، 2017، ص16).

فالكاتب يؤمن بهذه الشراكة العربيّة اليهوديّة في العمل السياسي والنضال، كغيره من رفاق الحزب الشيوعي الأمميّ، وهو حين يشير إلى تلك علاقة الصداقة الحميمة بينه وبين رفيقه في الحزب توفيق طوبي، يقول: "كان طوبي يؤمن بأنّنا لا نستطيع أن نحقّق أيّ إنجاز في قضايا المساواة والبقاء في الوطن والمحافظة على الأرض بدون نضال يهوديّ عربيّ، وكان التعاون اليهوديّ العربيّ حجر الأساس في عمله"(طه، 2017، ص90).

وبالتالي، هو يرفض أن يتقوقع العرب الفلسطينيّون، وأن يبنوا الأسوار العالية بينهم وبين المجتمع اليهوديّ، وينادي بالخروج من هذه القوقعة، وعندها فقط يمكن العمل والتغيير "نحن نعاقب أنفسنا ونخدم المؤسّسة الإسرائيلية في تقوقعنا"(طه، 2017، ص16)، فالمؤسسة – كما يراها- هي التي وضعت هذه الحواجز بين الفلسطينيين وبين المجتمع اليهوديّ، كي يبقى هذا المجتمع منغلقًا على نفسه، ولا يعرف الحقيقة، بأنّ هناك شعبًا فلسطينيًّا عاش على هذه الأرض، وأنّ هذه البيوت في حيفا والرملة واللد وغيرها هي بيوت للفلسطينيّين الذين تحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين.

فهذه الأسوار التي أقامتها المؤسّسة، وهذا القتل الذين يقومون به هو نتيجة الخوف والقلق، "يقتلوننا لأنهم يخافون منا.. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب الأرض وصاحب الزيتون والصبار.. يقتلوننا لأنهم يعرفون من صاحب حوض النعناع، يقتلوننا لأنهم أكلوا اللحم النيء، ويخافون من وجع البطن"(طه، 2017، ص216).

وهو حين يتحدّث عن هذه القوى اليساريّة، نراه يتحدّث عنها بإيجابيّة، والواقع أنّ هذه القوى لم نلحظها كثيرًا على المستوى العام، وفي ميادين النضال السياسيّ والعمل المشترك، بقدر ما رأيناها على المستوى الشخصيّ والخاصّ بالكاتب نفسه؛ "فلم ينجح د. صيمح بإقناع المسؤولين بالجامعة بقبولي للعمل، ولمّح لي بأن موقف الجامعة ليس مهنيًّا.. والحدق يفهم"(طه، 2017، ص117). وبعد مصادرة مجموعته القصصية "وردة لعيني حفيظة" واعتقاله ومحاكمته، كان الكاتب قد التقى أستاذًا جامعيًّا صدفة، فأخبره بأنّ هناك ثلاث شخصيات بارزة من اليسار الاسرائيليّ التي تنادي بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، والتفاوض معها، كانوا بحثوا عنه (أي عن الكاتب) لمنحه جائزة مالية متواضعة باسم الشهيد الفلسطينيّ سعيد حمامي وقد تعذّر الاتصال به (ينظر في: طه، 2017، ص151).

ويبدو أنّ الكاتب، قد أيقن بأنّ هذه القوى اليساريّة، لا يمكن المراهنة عليها وقت الشدّة؛ إذ تختفي وتتلاشى، فكانت خيبة الأمل كبيرة، وكان الحزن شديدًا، فعندما كان الاحتلال (أيام الاجتياح) يحاصر المدن ويحوّلها إلى سجون كبيرة.. وكان الجوع يغزو البيوت، راح يتساءل: "ماذا أفعل؟ الدائرة صغيرة ومحيطها سور شائك، أبحث عن نقطة ضوء في خط التماس، عن كلمة، عن صوت جريء، عن شمعة صغيرة، عن الذين كانوا أصدقاء في ساعات الرخاء، واختفوا في ساعات الشدّة، عن الحمامات الشهيدة، عن الزغاليل الساقطة غيلة على قارعة الطريق، يقول القرويون: لا أحد يسدّ جورة أحد، وأقول: لا أحد يحارب حرب الآخر"(طه، 2017، ص221-222)، فلا أحد يحكّ جلدك مثل ظفرك!!

وبالرغم من ذلك، فإنّ محمّد علي طه يؤمن بضرورة العمل مع "هؤلاء الناس (اليهود) كي نغير الواقع الصعب، لا يمكن أن ننجح وحدنا في مكافحة العنصريّة والشوفينيّة والاحتلال والاستيطان؛ فنحن بحاجة إلى قوى ليبيراليّة في المجتمع اليهودي الإسرائيلي (ينظر في: طه، 2017، ص16).

12-3 اليهوديّ والشعر:

تظهر في هذا العمل شخصيّة اليهودي الشاعر اليساريّ في أكثر من مناسبة، وكانت تربط الكاتب بهؤلاء الشعراء علاقة قويّة، وكان من بينهم رئيس قسم اللغة العربيّة في جامعة حيفا الشاعر "دافيد صيمح"، الذي نشر قصائده في صحيفة "الاتحاد" ومجلة "الجديد" (وتصدران عن الحزب الشيوعي)، في الخمسينات، و"كان رفيقًا في الحزب الشيوعي، وعلى الرغم من أن الرجل ترك الحزب وانشغل في الحياة الجامعية، إلا أنه بقي يساريا نظيفا"(طه، 2017، ص116).

ويشير الكاتب كذلك إلى صداقته مع الشاعر اليهودي "ناتان زاخ"(طه، 2017، ص199)، والأديب العبري "عاموس كينان"(طه، 2017، ص92)، و"ألكسندر بن" الذي يعرّفه بأنّه "كبير الشعراء العبريين في هذه الأيام، وهو شاعر شيوعي وتعاديه المؤسسة وتعتّم عليه"(طه، 2017، ص92).

ويبدو واضحًا أنّ الكاتب يكنّ لمثل هؤلاء الشعراء وأمثالهم الكثير من التقدير والاحترام، ويحبّ أن يلتقيهم وأن يزورهم في المناسبات والأمسيات واللقاءات المختلفة، ففي شهر آذار من عام 2016، نظّمت جامعة حيفا ومؤسسة محمود درويش للإبداع أمسية ثقافيّة في تل أبيب احتفاء بذكرى ميلاد محمود درويش، وبشهر الثقافة الفلسطينيّة، وغصّت القاعة بمئات الرجال والنساء من اليهود، وتحدّث أستاذ جامعيّ عن شعر درويش، وقرأ عدّة شعراء قصائد لدرويش مترجمة إلى العبريّة، وتحدّث شاعر يهوديّ عنه، وتكلّمت عشيقة درويش اليهوديّة في الستينات التي أسماها في قصائده ريتا، وغنّى مطرب عربيّ ومطرب يهوديّ قصائد من أشعاره "كان حدثًا ثقافيًّا بارزًا، وهو في اعتقادي أهمّ احتفال لذكرى درويش جرى حتّى اليوم. ذكرى ميلاد درويش في يافا، في تل أبيب، خمسمائة مواطن إسرائيلي يهوديّ يستمعون إلى قصائده وإلى كلمات عنه وإلى قصائد مغنّاة من شعره.. تأثّرت جدًّا"(طه، 2017، ص16).

ومن الطريف أن يصوّر الكاتب شخصيّة اليهودي الذي يعيش في الكيبوتس[4] على نحو من الانفصام "كان أعضاء الكيبوتس رجالا ونساء وأولادًا يعتقدون أنّ العرب قد اعتدوا عليهم وشنوا حربا لإبادتهم في عام 1948، ولا يعرفون بقضيّة اللاجئين، ويكرهون

(4) الكيبوتس: هو شكل استيطاني ابتكر في إسرائيل كان هدف مؤسسيها حياة الشراكة، والمساواة والعمل في الزراعة. تأسس أول كيبوتس في العام 1909 في أم جوني، أي دجانيا، على ضفاف بحيرة طبريا. كانت فكرة الحياة المشتركة قد استهوت الكثيرين، وأقيمت على مر السنين كيبوتسات أخرى، وقد عملت جميعها وفق مبادئ أساسية أقيم خلال القرن العشرين 268 كيبوتسا، في جميع أنحاء إسرائيل، وقد أقيم أغلبها في أطراف البلاد، من أجل الدفاع عن حدود الدولة، وقد واجهت الكيبوتسات على مر سنين طويلة مصاعب أمنية، وكانت رمزا من رموز الهوية الإسرائيلية. وقد حققت بعض الكيبوتسات إنجازات مرموقة في مجال الزراعة، وفي العقد الثاني لقيام الدولة بدأت الكيبوتسات تعمل في مجال الصناعة، والسياحة وقطاعات اقتصادية أخرى أيضا. مع مرور الوقت خرج عدد كبير من أعضاء الكيبوتسات للعمل كأجيرين في بلدات أخرى، وحولت أجورهم للصندوق العام للكيبوتس، أدى النشاط الاقتصادي الكبير إلى ارتفاع مستوى المعيشة في الكيبوتسات. تمتعت الكيبوتسات

الرئيس المصري جمال عبد الناصر، سوريا وشعبها وينادون بأخوّة الشعوب"(طه، 2017، ص97). والواقع أنّ ذلك ليس غريبًا أو مفاجئًا؛ إذ أنّ مثل هؤلاء اليهود يعيشون داخل دفيئة خاصّة، أي الكيبوتس، ويمارسون حياتهم اليوميّة وأعمالهم بعيدًا عمّا يجري في العالم من حولهم، فهم يعرفون ويردّدون ما يسمعون من المؤسّسة فقط، ويؤمنون بذلك إيمانًا مطلقًا دون أن يفتّشوا عن الحقيقة. وكأنّ المؤسّسة قامت بعمليّة غسل دماغ لهؤلاء، حتى يبدو أمرهم غير منطقي، بعيدًا عن التفكير السليم ومناقضًا لما بين الجوهر والظاهر "كانوا يكرهون الاتحاد السوفييتي، ويعلّقون على جدران المكتبة وفي النادي صورًا لماركس ولينين"(طه، 2017، ص97).

وبعد،

فإنّ الكاتب، رغم هذه الصورة القاتمة في معظمها، يؤمن بالنصر الأكيد، ومن أجل ذلك "لا بد أن نحاصر الحصار، نطوقه، نخترقه، نتغلّب عليه، هذا الجنرال غبيّ ولا يفهم منطق التاريخ. التاريخ الذي يقول إن النصر للشعوب.. وشعبنا سوف ينتصر.. والاجتياح لن ينتصر على إرادتنا.. على صمودنا"(طه، 2017، ص226).

فهو متفائل جدًّا، يراوغ اليأس وينتصر عليه، سلاحه الأمل، وزاده الإيمان بعدالة قضيّته " لا أيأس أبدا، فاليأس عدو قاتل، يخدم أعداء شعبنا، ألم تعمل السلطات منذ العام 1948 على زرع اليأس في قلوبنا ونفوسنا حتى نرحل عن وطننا؟"(طه، 2017، ص266). فرغم كلّ السوداوية التي ترافق هذه الصور، ورغم كلّ الظلم والظلام، إلّا أن "العالم ليس أسود، والحياة ليست غبراء، ما زال هناك صباح جميل وأزهار بيضاء وحمراء، وعصافير تغرّد في الحديقة، وعبير البرتقال وشذى الزعتر، وابتسامة الحفيد الصغير، ورائحة الخبز البلديّ المتضوّعة من الفرن"(طه، 2017، ص18). فالشعب الفلسطيني يحبّ الحياة كغيره من شعوب العالم، ويستحق هذه الحياة، ويستحقّ الفرح، وسوف يصل إلى مراده فـ "ما زال هناك مناضلون وثوريون في الميادين، وفلاحون يزرعون الأرض ويغرسون فسائل الزيتون والبرتقال، وما زال هناك مطر وندى، وما زلنا نحب الحياة، إن استطعنا إليها سبيلا، بل نستطيع إليه سبيلا"(طه، 2017، ص18). فهو متفائل جدًّا، يراوغ اليأس وينتصر عليه، سلاحه الأمل، وزاده الإيمان بعدالة قضيّته " لا أيأس أبدا، فاليأس عدو قاتل، يخدم أعداء شعبنا، ألم تعمل السلطات منذ العام 1948 على زرع اليأس في قلوبنا ونفوسنا حتى نرحل عن وطننا؟"(طه، 2017، ص266).

4- تلخيص واستنتاجات:

وعلى ضوء ما سبق، يمكن القول إنّ محمّد علي طه، في روايته "نوم الغزلان"، نجح في أن يجسّد تلك الصورة النمطيّة التقليديّة التي عُرفت عن اليهود في الفترة التي رافقت النكبة وما تلاها من نكسة وحكم عسكريّ، حتى بداية الثمانينات من القرن الماضي؛ إذ تمّ إنهاء الحكم العسكري، ولو شكليًّا أو إعلاميًّا، ، تجلّى فيها اليهوديّ بأبشع صوره وأقبح صفاته، ثمّ بدأت بشاعة هذه الصورة تقلّ شيئًا فشيئًا، وتخفّ حدّتها، وربّما يعود ذلك لأسباب سياسيّة محليّة وإقليميّة، وأهمّها اتفاقيّة السلام بين إسرائيل وبعض الأقطار العربيّة، إضافة إلى انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991، وغيرها من أحداث أثّرت على المناخ العام السياسي في هذه المنطقة، إنْ على مستوى الحكومات والقيادات العربيّة والإسرائيليّة، أو على مستوى الشعوب العربيّة، أدت إلى ظهور بعض دعوات التطبيع على مستويات عدّة، فخفتت روح النضال لدى هذه الشعوب.

وبالمقابل، ظهرت هناك صورة مغايرة، والمتمثّلة باليهودي اليساريّ، والشيوعيّ، والليبرالي، والشاعر، والأديب، والفنان. ولمّا كان الكاتب شيوعيًّا يؤمن بالنضال المشترك والكفاح من أجل تغيير الواقع الصعب، فقد نادى بضرورة التعاون مع هذه القوى اللبراليّة، لمكافحة العنصريّة والاحتلال والاستيطان، وإن كان يعبّر عن خيبة أمله من هذه القوى في مناسبات عديدة، ويلحظ أنها تختفي في اللحظات الحاسمة، فيبدو عاتبًا عليها، محبطًا.

فهو حين يتحدّث عن المؤسّسة الإسرائيليّة، وأجهزتها المختلفة كجهاز الأمن العامّ وجهاز المخابرات والجيش والشرطة وغيرها، ظهر حادًّا في لهجته وقاسيًا وغاضبًا ورافضًا وثائرًا ضدّ الاحتلال، والقهر، والعنصريّة، والصهيونيّة. ولكنّه، حين يتحدّث عن الإنسان أو المجتمع اليهوديّ، تخفّ حدّة هذه اللهجة، بل نراه يدعو إلى العمل المشترك مع القوى التقدّميّة الليبراليّة اليساريّة، والخروج من القوقعة، من أجل نجاعة الكفاح والنضال ضدّ القوى اليمينيّة الصهيونيّة المتطرّفة، وضدّ القوانين العنصريّة المجحفة بحقّ العرب، وضدّ سياسات الحكومات المتعاقبة الظالمة على اختلافها، إيمانًا منه بأنّه ليس بمقدور فلسطيني الداخل وحدهم، دون هذه القوى محاصرة الحصار، والوقوف في وجه القوى والقوانين العنصريّة، ويعود ذلك بالطبع إلى أسباب فكريّة وعقائديّة، وتأثّره بفكر ومبادئ الحزب الشيوعي، وبالاتجاه العالمي الذي أخذ يدعو إلى السلام، وبالتالي، فإنّ محمّد علي طه، يحدّد صراعه وقضيّته ومشكلته؛ فهي ليست مع المجتمع اليهودي، بل مع المؤسسة وأجهزتها وأذرعها وقوانينها العنصريّة.

حتى سنوات الـ 70 بتقدير وبشعبية في البلاد والعالم، وجاء أشخاص من دول مختلفة ليتعرفوا عن كثب ويشاهدوا هذا النمط من أسلوب الحياة والانخراط فيه بالتطوع لفترات قصيرة. (تسفيا فاين وآخرون، إسرائيل الإنسان والمدى، ص)176.

ولأنّ الكتابة عند محمّد علي طه هي شكل من أشكال النضال والكفاح ضدّ الاحتلال والعنصريّة والشوفينيّة والاستيطان، فإنّه يحرص على أن يكون متفائلًا، يحلم بزوال الظلم والعدوان والاحتلال؛ فهو لا يعرف اليأس، ولا يستسلم له، إيمانا منه بأنّ اليأس عدو قاتل، ولا يخدم إلّا العدوّ، فهو يعي تمامًا هذه المسألة، ويدرك أن السلطات، ومنذ النكبة، تعمل على زرع اليأس في قلوبنا ونفوسنا حتى نرحل عن وطننا كما يقول، لذا، من أجل العمل والتغيير، يؤمن الكاتب بضرورة الخروج من القوقعة؛ إذ أنّ التقوقع يخدم المؤسسة الإسرائيليّة فقط، وفيه عقاب لأنفسنا.

ثبت المراجع:

كتب:

1- الأسطة، عادل. (2012). اليهود في الرواية العربيّة؛ جدل الذات والآخر. رام الله: الرقميّة.
2- بابة، إيلان. (2007). التطهير العرقي في فلسطين. ترجمة أحمد خليفة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينيّة.
3- طه، محمد علي. (2017). نوم الغزلان. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
4- علي، ياسر. (2009). المجازر الإسرائيليّة بحقّ الشعب الفلسطيني. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.
5- فاين، تسفيا وآخرون. (2008). إسرائيل الإنسان والمدى. تل أبيب: مطاح، مركز التكنولوجيا التربوية.
6- كيها، مصطفى. (2014). الأقلية العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل في ظلّ الحكم العسكري وإرثه. حيفا: مدى الكرمل- المركز العربي للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة.

دراسات:

1- متولي، محمد سيد أحمد. (2019). صورة اليهود في الرواية العربية المعاصرة؛ رؤية سرديّة مغايرة. مجلة رسالة المشرق، عدد 1- 2، مجلد 34، 2019، ص63-107.
2- القاسم، نبيه. نوم الغزلان وتفاؤل محمد علي طه

صحف:

1- صحيفة "الاتّحاد". 15 نيسان، 2022.

مواقع إلكترونيّة:

1- بوراك، إميلي. كتاب "جواسيس بلا وطن" يروي قصة العملاء اليهود الشرقيين قبل قيام الدولة" . https://ar.timesofisrael.com 11-2019-03
2- القاسم، نبيه. نوم الغزلان وتفاؤل محمد علي طه /https://nabihalkasem.com
3- كامل، رياض. وقفة على حافة السيرة الذاتية في نوم الغزلان https://www.ssrcaw.org - مركز الدراسات والابحاث العلمانية في العالم العربي2017 / 10 / 15
4- كيها، مصطفى. في مواجهة تهويد معالم البلاد ومسمّياتها. عرب 48.https://www.arab48.com
5- ttps://ar.timesofisrael.com